حربُ البَسوس

وأثرُها في أدبنا العَرَبيِّ

بحث من إعداد

دكتور: أحمد محمد مبروك علوان

الألوكة

www.alukah.net

حربُ البَسوس

وأثرُها في أدبنا العَرَبيِّ

مقدمة

لقد حظِيَ تراثنا العربيُّ باهتمام النقَّاد والباحثين علىٰ اختلاف مشاربهم، بَيدَ أنَّ بعض التراث العربي كان أوفر حظًّا من بعضه في اهتمام الأدباء به، ولعل حرب البسوس والشخصيات التي ورد ذكرها فيها قد نالت اهتمامًا كبيرًا؛ إذ لم يُكتفَ بأخبارها المتناثرة في كتب المؤرخين، بل أُفرِدت لها مؤلَّفات خاصة، اختلفت تلك المؤلفات في طريقة تناولها ومواطن تركيزها.

فبينما تناول بعض الأدباء الحرب كاملة في عمل أدبي؛ كالكاتب علي أحمد باكثير في مسرحيته "حرب البسوس"، نجد من ركَّز علىٰ شخصية بعينها، فأفرد لها مؤلَّفًا يعرض فيه بطولاتها ومآثرها، وهو ما فعله عدد من الكتَّاب الذين تناولوا سيرة "الزير سالم" أو المُهلهِل أخي كليب، في ملحمة شعبية رائعة أسَرَتِ القلوب والعقول.

ومن الكتَّاب من جمع شعرَ المُهلهِل في ديوان وأسماه ديوان "مهلهل بن ربيعة"، ومن الأدباء من استلهم حادثة بعينها، وأبدع علىٰ غرارها قصيدة، تسلِّط الضوء علىٰ واقع الأمة أكثر مما تسرد أحداث الماضي، وذلك ما فعله الشاعر أمل دُنقل في قصيدته "لا تصالح".

وفي هذا البحث أتناول حرب البسوس من وجهة تاريخية، ثم أعرِض لأبرز الأعمال الأدبية التي تناولَتها، راجيًا الله تعالىٰ أن يضيف البحث في مجال الأدب جديدًا وإن قلَّ.

حرب البسوس ... لمحة تاريخية:

لما فضَّ كليب بن ربيعة جموعَ اليمن في "خزاز"[1] وهزمهم، اجتمعت عليه معدٌّ كلها، وجعلوا له القيادة عليهم، ومنحوه من الطاعة والولاء ما يُمنح الملوك؛ فقد حقق لهم النصر علىٰ ملك اليمن، غير أن كليب بن ربيعة دخله زهوٌ شديد بنفسه، وبغىٰ علىٰ قومه، حتىٰ بلغ من بغيِه أنه كان يحمي مواقعَ السحاب فلا يُرعىٰ حِماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه؛ إجلالًا له، ولا تُورَد الماءَ إبلُ أحدٍ مع إبله، ولا تُوقَد نار مع ناره، ولم يجرؤ بكريٌّ ولا تغلبيٌّ أن يُجير رجلًا ولا بعيرًا، أو يحمي حِمًىٰ إلا بأمره، وقد ضُرب به المثل في العزة، فقيل: أعزُّ من كليب بن وائل[2].

وقد كان كليب بن ربيعة من تغلبَ، وبنو تغلب وبنو بكر أبناء عمومة، وكان لكليبٍ الزَّعامة عليهم جميعًا بعد انتصاره في "خزاز"، وتزوج كليب جليلةَ بنت مُرة بن ذهل بن شيبان، وكان لمُرة عشرةُ بنين، أصغرهم جسَّاس بن مُرة.

---

(1) خَزاز أو خَزازىٰ: لغتان، كلاهما بفتح أوله، وهو جبل اخُتلف في موضعه، وقيل: ما بين البصرة إلىٰ مكة، وقيل: هو جبل لبني غاضرة خاصة؛ [انظر: معجم البلدان، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرُّومي البغدادي المتوفىٰ 626ه، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2/ 417].

(2) أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولىٰ بك، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأول (د.ت)، ص 142 وما بعدها.

وكان كليب – كما ذكرت آنفًا – قد تملك منه الزهوُ، حتىٰ إنه كان يحب سماع كلمات الإطراء والمدح بأذنيه، ويحب أن يسمع أنه أمنع العرب وأقواهم، فدخل يومًا علىٰ زوجته جليلةَ وسألها: هل تعلمين علىٰ الأرض أمنعَ مني ذِمَّة؟ فسكتت، ثم أعاد عليها القول ثانية فسكتت، وفي الثالثة قالت له: نعم، أخي جسَّاسًا ونديمه ابن عمه عمرو المزدلف بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، فسكت كليب، وبعد مدة بينما كانت تغسل رأسه يومًا إذ سألها: من أعز وائل؟ قالت: أخواي جسَّاسٌ وهمام، فنزع رأسه من يدها وخرج، وعند خروجه رأىٰ فَصِيلَ ناقةٍ للبسوس، فرماه بقوسه فقتله، والبسوس بنت منقذ خالةٌ لجسَّاس بن مُرة، وقد نزلت يومًا عند ابن أختها جسَّاس، فكانت جارة لبني مُرة، وهي التي يُضرب بها المثل في الشؤم فيُقال: أشأم من البسوس[3]، وكانت لها ناقة خوَّارة ومعها فصيل لها، فلما خرج كليب غاضبًا من قول زوجته جليلة، رأىٰ هذا الفصيل، فقتله.

وعلِم بنو مُرة فسكتوا ولم يُحركوا ساكنًا، ثم لَقِيَ كليبٌ ابنَ البسوس فقال له: ما فعل فصيلُ ناقتكم؟ فقال: قتلتَه وأخلَيتَ لنا لبن أمه، وسكتت بنو مرة علىٰ ذلك أيضًا، ثم مرت عليه إبل جسَّاس يومًا فرأىٰ فيها ناقة، فقال: ناقةُ من هذه؟ فقالوا: إنها لخالة جسَّاس، فقال: أبَلَغ من أمْرِ ابن السعدية أن يُجير عليَّ بغير إذني؟ ثم أمر الغلام برميها، فرماها بالقوس فأصاب ضَرعَها، فاختلط دمها بلبنها، وأسرع الرعاة إلىٰ جسَّاس فأخبروه، أما الناقة فقد ظلَّت تنزف حتىٰ بركت في فناء البسوس، فلما رأتها صاحت: وا ذُلَّاه، فقال

(3) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني المتوفىٰ 356ه، شرح عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) ج5/ 40.

جسَّاس: اسكتي ولك بناقتك ناقةٌ أعظم منها، فأبَت أن ترضىٰ حتىٰ صاروا بها إلىٰ عشر نِياق، فلما كان الليل، أنشأت تقول مخاطبة سعدًا أخا جسَّاس، وكانت ترفع صوتها ليسمع جسَّاس:

أيا سعدُ لا تغرُر بنفسك وارتحل = فإني في قوم عن الجار أمواتُ

ودونك أذوادي إليك فإنني = محاذرة أن يغدروا ببُنياتي

لَعمرك لو أصبحت في دار منقذٍ = لَما ضيم سعدٌ وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار معشر = متىٰ يعدُ فيها الذئب يعدُ علىٰ شاتي

فسمعها جسَّاس فقال: اسكتي، لا تراعي، إني سأقتل جملًا أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالًا، وكان غلالٌ هذا فحلَ إبل كليب.

ثم مرت بكرٌ علىٰ ماء يُقال له: شُبَيث، فمنعهم كليب عنه، وقال: لا يذوقون منه قطرة، ثم مروا علىٰ ماء آخر يقال له: الأحَصُّ، فمنعهم منه، وقال: لا يذوقون منه قطرة، ثم مروا علىٰ بطن واد الجريب فمنعهم إياها، فمضَوا حتىٰ نزلوا الذئاب وهو موضع بنجدٍ، فتبِعهم كليب، فمرَّ جسَّاس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وهو واقف علىٰ غدير الذئاب فقال له: طردتَ أهلنا عن المياه، حتىٰ كدتَ تقتلهم عطشًا، فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون، فقال له جسَّاس: هذه كفعلِك بناقة خالتي، فقال: أوَقد ذكرتها؟ أمَا إني لو وجدتُها في غير إبل مُرة، لاستحللت تلك الإبل جميعها بالناقة، فرماه جسَّاس برمحه، فلما أشرف علىٰ الموت، طلب من جسَّاسٍ أن يسقيه ماءً، فقال: ما

عقلتَ استسقاءك الماءَ منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه، ثم قال كليب لعمرو بن الحارث: يا عمرو أغِثْني بشربة ماء، فنزل إليه، وأجهز عليه.

ثم عاد جسَّاس إلىٰ أبيه مُرَّة مسرعًا بجواده، فلما رآه أبوه قال: ما وراءك يا بني؟ قال: طعنت طعنةً لَتُشغلَنَّ بها شيوخُ وائلٍ زمانًا، فقال مُرة: وما هي؟ لأمِّك الويل! أقتلت كليبًا؟ فقال جسَّاس: نعم، فقال أبوه: إذًا نُسلمك ونُريق دمك في صلاح العشيرة، لبئس ما فعلتَ؛ فرقتَ جماعتك، وأطلتَ حربها، وقتلتَ سيدها في شارفٍ من الإبل[4]، فلن تجتمع وائلٌ بعد اليوم، ثم جاء رجالُ بكرٍ عندما علموا بالخبر، وقالوا لمُرة: لا تفعل ذلك، فيخذلوك وولدَك، فقال جسَّاس:

تأهَّب مثل أُهبة ذي كفاح = فإن الأمرَ جلَّ عن التلاحي[5]

وإني قد جنيتُ عليك حربًا = تُغِصُّ الشيخ بالماء القَرَاحِ

فرد مُرة قائلًا:

فإن تكُ قد جنيت عليَّ حربًا = تُغِصُّ الشيخَ بالماء القَرَاحِ

جمعتَ بها يديك علىٰ كليب = فلا وكِلٌ[6] ولا رثَّ السلاحِ

---

(4) الشارف من الإبل: المسنَّة الهرمة.

(5) التَّلاحي: تعني المخاصمة.

(6) وكِلٌ: عاجزٌ.

ولما قُتل كليب اجتمع نساء تغلب للمأتم، فقُلن لأخت كليب: أخرِجي جليلةَ بنت مرة عن مأتمكِ؛ فإن قيامها فيه شماتةٌ علينا عند العرب، فقالت لها: اخرجي عن مأتمنا، فأنتِ أختُ واترِنا، فخرجت جليلةُ، وأنشدت تقول:

يا بنةَ الأقوام إن شئتِ فلا = تعجلي باللوم حتىٰ تسألي

فإذا أنت تبينتِ الذي = يُوجِب اللوم فَلُومي واعذُلي

إن تكن أختُ امرئ لِيمَت علىٰ = شفقٍ منها عليه فافعلي

جلَّ عندي فعلُ جسَّاسٍ فيا = حسرتي عما انجلت أو تنجلي

فعل جسَّاسٍ علىٰ وجدي به = قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أجَلي

وكان همَّام بن مرة أخو جسَّاس ينادم المُهلهِل أخا كليب، فلما بلغ مُرة ما حدث، ظعن بأهله وأرسل فرسًا إلىٰ همام ليلحق به، فأخبرَته الجارية بما حدث، فسأله المُهلهِل: ماذا حدث؟ فقال: تزعم أن جسَّاسًا قتل كليبًا، فضحِك المُهلهِل قائلًا: همة أخيك أضعف من ذلك، وأقبلا علىٰ شرابهما، فكان همامٌ يشرب شربَ الخائف حتىٰ صرعت الخمر مُهلِهلًا، فانسلَّ همام وأتىٰ قومه، وقد قوَّضوا الخيام، وجمعوا الخيل والنَّعم، ورحلوا حتىٰ نزلوا بمكان يُقال له: النَّهي.

ورجع المُهلهِل إلىٰ الحي سكرانَ، فرآهم يعقِرون خيولهم، ويكسِرون سيوفهم، فقال: ويحكم ما الذي حدث؟ فأخبروه فقال: لقد ذهبتم شرَّ مذهب، أتكسرون سيوفكم

وتعقرون خيولكم حين افتقرتم إليها؟ فنهاهم عن ذلك، وجاء النساء فنهاهم عن البكاء، وفي الصباح دفن أخاه؛ وقال علىٰ قبره:

أهاج قذاةَ عيني الادِّكار = هدوءًا فالدموع لها انحدارُ

وصار الليل مشتملًا علينا = كأن الليل ليس له نهارُ

وبِتُّ أراقب الجوزاء حتىٰ = تقارَب من أوائلها انحدارُ

أُصرِّف مقلتي في إثر قومٍ = تباينت البلاد بهم فغاروا

دعوتُك يا كليبُ فلم تُجبني = وكيف يُجيبني البلدُ القِفارُ

أجِبْني يا كليبُ خلاكَ ذمٌّ = لقد فُجعت بفارسها نزارُ

إلىٰ أن قال:

خُذِ العهد الأكيد عليَّ عمري = بتركي كل ما حَوَتِ الديارُ

وهجري الغانياتِ وشربَ كأسٍ = ولُبسي جبةً لا تُستعارُ

ولستُ بخالع درعي وسيفي = إلىٰ أن يخلع الليلَ النهارُ

وإلا أن أُبيد سَراة بكرٍ = فلا يبقىٰ لها أبدًا أثارُ

وظل المُهلهِل يبكي أخاه ويرثيه بالشعر حتىٰ يئس منه قومه، وقالوا عنه: إنه زِيرُ نساء، وسخرت منه بكر وهمُّوا بالرجوع إلىٰ منازلهم، فانتبه المُهلهِل للحرب، وأقسم ألَّا يلتفت إلىٰ لهو أو شرب، حتىٰ يقتل بكل عضوٍ من كليب رجلًا من بكر.

وقال له كُبراء قومه: لا تعجَل بالحرب حتىٰ تُعذر إلىٰ إخواننا، وألحُّوا عليه، فخضع لقولهم، وذهب سادة تغلب إلىٰ بكر وقالوا لمُرة: لقد أتيتم أمرًا عظيمًا بقتل كليب، ونحن

نكرَه العَجَلَةَ عليكم دون الإعذار، وإننا نعرض عليكم إحدىٰ ثلاثٍ، فيها مخرج لكم ومرضاة لنا: أن تدفعوا إلينا جسَّاسًا فنقتله بكليب، أو تدفعوا لنا همَّامًا فهو ندٌّ لكليب، وإما أن تَقِيدونا من نفسك يا مُرة؛ فإن فيك رضا القوم.

فرفض مُرَّةُ الأمور الثلاث، وعلَّل ذلك بأن جسَّاسًا غلام حديث السن، ركب رأسه فهرب حين خاف، ولا يدري أي البلاد انطوت عليه، وأما همام فأبو عشرة، ولو دفعه إليكم لصاح بنوه في وجهي، واتهموه بأنه دفع أباهم للقتل بجريرةِ غيره، وأما هو فقال عن نفسه: أما أنا فلا أتعجل الموت، ثم عرض عليهم أن يختاروا أحدًا غير الثلاثة، أو يرضُوا الدِّية، وليُغلوا فيها ما شاؤوا، فغضبوا وعادوا إلىٰ المُهلهِل وأخبروه برد مُرة، فقال: والله ما كان كليبٌ بجزور نأكل له ثمنًا.

واعتزلت بعض قبائل بكر، ولم تُرِد مشاركة بني شيبان في قتالهم لتغلب، ثم دارت المعارك بين بكر وتغلب، وتعددت اللقاءات بينهم، واستمرت أربعين سنة، وقد اختلف المؤرخون في ترتيب تلك الأيام، لكن يُقال: إن أولها كان عند ماء لهم يُقال له: النَّهي[7]، وكانت بنو شيبان تنزل عنده، وكان المُهلهِل علىٰ رأس تغلب، والحارث بن مُرة علىٰ رأس بكر، وكانت الدائرة لتغلبٍ علىٰ بكر، إلا أنه لم يُقتل فيها أحد من بني مرة.

(7) انظر: أيام العرب في الجاهلية، ص 155.

ثم توالت الأيام بعد ذلك وكان أشهرها: يوم الذئاب؛ حيث ظفِرت تغلب فيه، ثم التقَوا بواردات فظفِرت بنو تغلب أيضًا، ثم التقوا بمُنيزة فتكافأ الطرفان، والتقوا بالقصيبات وكانت الدائرة علىٰ بكر، وقُتل في ذلك اليوم همام بن مُرة، فمر به المُهلهِل مقتولًا فقال له: ما قُتل بعد كليبٍ أعزُّ عليَّ فقدًا منك.

وكانت تغلب تطلب جسَّاسًا بشدة، فأمره أبوه أن يلحق بأخواله في الشام، فرفض، فألحَّ عليه أبوه وسيَّره سرًّا في خمسة نفر، وبلغ الخبرُ المُهلهِلَ فندب أبا نويرة، وهو من فرسان تغلب المعدودين، وأرسل معه ثلاثين رجلًا من أشجع فرسان تغلب، فصاروا حتىٰ أدركوا جسَّاسًا فقاتلهم، فقُتل أبو نويرة وأصحابه، ولم يبقَ منهم غير رجلين، وجُرح جسَّاس جرحًا شديدًا مات من أثَره، وقُتل أصحابه فلم يسلم غير رجلين منهم أيضًا، فعاد السالمون من الطرفين إلىٰ قومهم.

ولما بلغ مُرة مقتل ابنه جسَّاس، قال: إن ما يحزنني أنه لم يُقتل منهم أحدًا، فأخبره أنه قتل أبا نويرة وخمسة عشر رجلًا وحده، فقال: هذا ما يُسكن قلبي عن جسَّاس، ثم أرسل إلىٰ المُهلهِل يقول له: لقد أدركتَ ثأرك فاكفُف عن القتال، ودَعِ اللَّجاج والإسراف؛ فذلك أصلح للحيَّين، فرفض المُهلهِل.

ثم ذهب رجال من بكر إلىٰ الحارث بن عُباد، وكان من سادة بكر، لكنه اعتزل الحرب ولم يشارك فيها، وقالوا له: إن الحرب أفنَت قومك، وطالبوه بإدراك الأمر، فأرسل ابنه بُجيرًا إلىٰ المُهلهِل؛ ليخبره بأنه اعتزل قومه لأجل قتل كليب، وأنه قد أدرك ثأره، وعليه أن

يتوقف عن القتل، فهمَّ المُهلهِل بقتله، فنهاه عقلاء قومه، لكنه قتله وقال له: بُؤْ بشِسْعِ نعلِ كليبٍ، فلما بلغ الحارث مقتل ابنه، أرسل إلىٰ المُهلهِل يقول: إن كنت قد قتلتَ بجيرًا بكليب، فقد طابت نفسي، فردَّ عليه: بل قتلتُه بشسع نعل كليب، فغضب الحارث غضبًا شديدًا، وانضمَّ إلىٰ بني بكر في قتالهم تغلب، وكان قائدهم الحارث بن همام، وأشار الحارث بن عُباد علىٰ القوم بإشراك النساء في المعركة، علىٰ أن يكونوا من وراء الرجال، وحلقوا رؤوسهم جميعًا في ذلك اليوم، وانتصرت بكر وأسر الحارثُ المُهلهِل ولم يكن يعرفه، فسأله عن المُهلهِل، فأخذ منه العهد أن يهَب له حياته إن أخبره، فأعطاه العهد، فأخبره بأنه المُهلهِل، فسأله الحارث عن رجلٍ من قومه يكون عدلًا لبُجير فدلَّه علىٰ امرئ القيس بن أبان، فجزَّ ناصيته ثم تركه، وذهب إلىٰ امرئ القيس فقتله.

وعندما عاد المُهلهِل إلىٰ قومه أمرهم بوقف الحرب، وعقد الصلح مع إخوانهم من بكر، ثم رحل إلىٰ اليمن، فطلب أحدهم الزواج من ابنته سُليمىٰ فرفض، فأكرهوه علىٰ ذلك، وعندما علِم قومه، ذهبوا إليه وأعادوا الفتاة إلىٰ أبيها، وأسَرُّوا زوجها، وحدث الصلح بين بكر وتغلب، ولم يحضره المُهلهِل، ثم شعر بالشوق لقومه وألحت عليه ابنته في العودة إلىٰ دياره، فعاد، لكنه اعتزل اللهو والشراب، بل اعتزل الغسل بالماء حتىٰ كانت له رائحة تؤذي من يجالسه، فدخل عليه يومًا رجلٌ كان نديمه، فأقسم عليه أن يغتسل، ففعل.

ثم نقض الصلح وأغار علىٰ بكرٍ، فظفِر به عوف بن مالك وأسَره، فجاءه شباب من قيس، وطلبوا منه أن يرسل معهم المُهلهِل ففعل، وحينما شربوا تغنىٰ المُهلهِل بهجاء بكر،

فسمِعه عوف بن مالك فقال: إن لله عليَّ نذرًا إن شرِب عندي قطرة ماء ولا خمر حتىٰ يُورد الخضير بمعجمتين، وهو بعيرٌ لِعوفٍ لا يرِد الماء إلا كل سبعة أيام، فقال له بعضهم: بئس ما حلفت، فبعثوا الخيول في طلب البعير، فأتَوا به بعد ثلاثة أيام، فمات المُهلهِل عطشًا.

وقيل: إن مهلهلًا قُتل، وقيل في سبب قتله: "أنه أسنَّ وخرِف، وكان له عبدان يخدمانه فملَّاه، وخرج بهما إلىٰ سفر، فبينما هو في بعض الفلوات عزما علىٰ قتله، فلما عرف ذلك، كتب قتب رحله، وقيل: أوصاهما:

من مبلغ الحيَّين أن مهلهلًا = لله درُّكما ودرُّ أبيكما

ثم قتلاه ورجعا إلىٰ قومه، فقالا: مات، وأنشداهم قوله، فقال بعض ولده: إن مهلهلًا لا يقول مثل هذا الشعر، وإنما أراد:

من مبلغ الحيين أن مهلهلًا = أمسىٰ قتيلًا في الفلاة مُجدَّلا

لله دركما ودر أبيكما = لا يبرح العبدان حتىٰ يُقتلا

فضربوا العبدين حتىٰ أقرَّا بقتله[8].

اهتمام الأدباء بحرب البسوس:

إن فكرة استلهام الحروب والمعارك في الأعمال الأدبية فكرة قديمة، تناولها الأدباء في مختلِف العصور، وكذلك في الآداب العالمية، وليس الأمر مقتصرًا علىٰ أدبنا العربي دون

(8) بلوغ الأرَب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود الألوسي البغدادي، شرحه: محمد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية، 1343ه – 1924م، الطبعة الثانية، ج2/ 157.

غيره، فالشاعر اليوناني "هوميروس" قد تناول حروبًا ومعاركَ في ملحمتَيه "الإلياذة والأوديسا"، ومن أبرزها معركة "طروادة".

وكذلك الشأن في أدبنا العربي، فقد احتفىٰ الأدباء العرب بالحروب والمعارك التاريخية، وضمِنوها أعمالَهم الأدبية، ومن أشهر المعارك التي حظِيت باهتمام خاص "حرب البسوس"، ولم يكن في استطاعتي في هذا البحث القصير الذي لا يتسع المجال للإسهاب فيه، أن أجمع كل الأعمال التي تناولت حرب البسوس؛ ولذا اكتفيت هنا بالإشارة إلىٰ ثلاثة أعمال، تُعَدُّ أشهر الأعمال الأدبية التي تناولت حرب البسوس، وسأعرضها في هذا الجزء من البحث.

أولًا: مسرحية حرب البسوس: علي أحمد باكثير (1910 - 1969):

لقد كتب علي أحمد باكثير مسرحية "حرب البسوس" عام 1967م، وتم نشرها عام 1990م، وقد كانت أحداث حرب البسوس غنية بعدد من القضايا المهمة؛ مما ساعد الكاتب علىٰ توظيف تلك الأحداث في تسليط الضوء علىٰ قضايا الأمة العربية، ونقد السلبيات الموجودة في المجتمع العربي.

فقد اتخذ من مقتل كليب ومحاولة الثأر له من قبيلة بكر، واستمرار مسلسل الثأر أربعين عامًا لم يجنِ فيها الطرفان إلا القتل والدمار، فرصةً لتسليط الضوء علىٰ الصراعات العربية الداخلية، وكيف يهدر العرب طاقاتهم في صراعاتهم، غافلين عن أعدائهم الحقيقيين، وبيَّن

مُركزًا علىٰ ما ينتج عن ذلك من آثار سلبية، تتمثل في إراقة دماء الأبرياء، وتمزيق العلاقات بين الأفراد والمجتمعات، وتفتيت وحدة الشعوب، وإهدار اقتصادها.

كما وظف أحداث حرب البسوس في لفت الأنظار إلىٰ ضرورة وحدة العرب، وإنهاء الصراعات الداخلية بينهم، وقد نجح الكاتب الكبير علي أحمد باكثير في صياغة الأحداث بشكل عصري؛ إذ جعل حرب البسوس تنشب بسبب عبدَين لرأس اليهود في خيبر الذي أهدىٰ أحدهما لكليب، والآخر لمُرة، وقد لعِب العبدان دورًا أساسيًّا في إشعال الحرب من خلال التحريض، وبقِيا يؤديان هذا الدور في استمرار هذه الحرب؛ يقول أحد الباحثين: "ويردُّ باكثير أسباب حرب البسوس إلىٰ أسباب مباشرة، وهي دور اليهود في إيقاع الفرقة بين العرب، فقد أضاف شخصيتَي نشوانَ وذكوانَ، ونسب إليهما القيام بدور الجاسوسية بتحريض من مشكم بن سلام؛ رأس اليهود في خيبر"[9].

ويبدو في هذا الجزء إبداع علي أحمد باكثير في تطويع الأحداث لظروف العصر، فلم تكن عداوة اليهود للعرب بادية في شبه الجزيرة العربية في وقت الحرب، بل أخذت في الظهور بعد الإسلام، لكنْ باكثير أوضحها بشكل جليٍّ في إشارة منه إلىٰ أحداث العصر، وأن العرب يجب أن يُفيقوا من غفلتهم، وأن ينتبهوا إلىٰ المؤامرات التي تُحاك ضدهم، كما انتبه العرب لذلك في المسرحية وكشفوا عدوهم وتداركوا الأمر؛ فيقول علىٰ لسان

(9) اليهود في مسرحيات علي أحمد باكثير، بحث للمؤلف: عبدالحكيم الزبيدي، نُشر إلكترونيًّا في نوفمبر 2004، ص 17.

"معديكرب": "لقد كان من توفيق الله لنا أن وقع في يدنا كتابٌ، أرسله مشكم بن سلام هذا إلىٰ أبرهة الحبشي الذي يحتل بلادنا اليوم، والكتاب أفصح من كل فصيح، فبحسبي أن أتلوه عليكم؛ لتعرفوا منه كل شيء: من مشكم بن سلام إلىٰ أبرهةَ عظيم الحبشة وحاكم اليمن، إننا علىٰ اختلاف ديننا نحن وأنتم، إنما نعمل لغاية واحدة هي تفريق كلمة العرب، وتمزيق وحدتهم، حتىٰ يتسنَّىٰ لنا أن نُخضعهم ونُخضع بلادهم لسلطان الروم ... واعلم يا عظيم الحبشة أن لي جواسيسَ في كل بقعة من بقاع الجزيرة، ينقلون لي الأخبار، ويعقِدون الصفقات، ويُذلِّلون العقبات ..."[10].

كما يعلن باكثير في نهاية المسرحية حقيقةً يتمناها، تلك الحقيقة التي ينطوي عليها فكره، وتختلج في صدره، ويتحرك بها لسانه؛ فيقول: "اليوم تجتمع كلمة العرب وغدًا لن تكون أرضُ العرب إلا للعرب"[11].

وفي هذا إشارة واضحة إلىٰ عبقرية علي أحمد باكثير من جانب، ومن جانب آخر مدىٰ انشغال الكاتب بقضايا وهموم الوطن العربي.

(10) مسرحية حرب البسوس، علي أحمد باكثير، دار مصر للطباعة، الطبعة الأولىٰ، عام 1990، ص 76، 77.

(11) مسرحية حرب البسوس، علي أحمد باكثير، ص 124.

ثانيًا: قصيدة لا تصالح: أمل دُنقل (1940 - 1983م):

"فنظر كليب حواليه وتحسر، وذرف دمعةً وتعبَّر، ورأىٰ عُبيدًا واقفًا فقال له: أريد منك يا عبدَالخير قبل أن تسلُبني، أن تسحبني إلىٰ هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير؛ لأكتب وصيتي إلىٰ أخي الأمير سالم الزير، فأوصيه بأولادي وفلذة كبدي، فسحبه العبد إلىٰ قرب البلاطة والرمح غارس في ظهره، والدم يقطُر من جنبه، فغمس كليب إصبعه في الدم، وخطَّ علىٰ البلاطة، وأنشأ يقول ..."[12].

بتلك الكلمات قدَّم الشاعر الراحل أمل دنقل لقصيدته "لا تصالح"، مُستلهمًا التراث العربي كعادته، وتوظيف رموزه في قصائده، متخذًا من حرب "البسوس" ومقتل "كليب بن وائل" منطلقًا لحديثه، ومرتكَزًا لكلامه، فقد تمثَّل الشاعر مقتل كليب وكأنه يكتب وصية لأخيه، يوصيه فيها ألَّا يفرط في ثأره، وألَّا يتهاون في الانتقام من قاتله، وألَّا يقبل الدِّيَةَ فيه، فليس كليبٌ بالرجل الذي يوازَن بالمال مهما بلغ.

فقد استمد من حرب البسوس فكرته؛ ليُخرج لنا قصيدة من أروع ما كُتب في العصر الحديث، قصيدة تُلقي بظلالها علىٰ واقع الأمة العربية وحاضرها أكثر مما تلتفت إلىٰ الماضي، فلم تكن حرب البسوس في مخيِّلة شاعرنا إلا أداةً طوَّعها بمهارة وعبقرية فريدة؛

(12) أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة، مكتبة مدبولي القاهرة، تقديم دكتور عبدالعزيز المقالح، الطبعة الثالثة، 1407ه – 1987م، ص 323.

ليسلط الضوء علىٰ واقعنا العربي، ويُبصِّر الأمة بما يواجهها في حاضرها ومستقبلها من تحدياتٍ؛ فيقول:

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

أتُرىٰ حين أفقأ عينيك

ثم أثبِّت جوهرتين مكانهما

هل ترىٰ؟

هي أشياءُ لا تُشترىٰ[13]

فقد أصدر الشاعر ديوانًا أسماه: "أقوال جديدة عن حرب البسوس"، طُبع بمكتبة المستقبل العربي للنشر والتوزيع بالقاهرة، وقد ضم الديوان قصيدتين فقط؛ هما: مقتل كليب "الوصايا العشر" وهي القصيدة التي اشتهرت بـ(لا تصالح)، ومراثي اليمامة.

وقد وظَّف أمل دنقل حرب البسوس أروعَ توظيف في خدمة فكرته، فقد اتخذ من مقتل كليب الذي كان الشرارة التي أشعلت الحرب بين بكر وتغلب، ووصية كليب لأخيه المُهلهِل منطلقًا يبث أفكاره، ويُقنع المتلقي برأيه، فقد جابَه معارضَه، وردَّ حُججه التي قد يبتدعها بعد موته، فانظر كيف وظف عبارة "لا تصالح" في مقاطع القصيدة ليفنِّد آراء المعارضين له، الذين يقبلون الصلح علىٰ حساب كرامة الأمة.

فقد بدأ بعبارة: "لا تصالح"، ثم ناقش بشكل منطقي، وصاغ معادلة لا تقبل الجدال:

أتُرىٰ حين أفقأ عينيك

---

(13) أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 324.

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترىٰ؟

هي أشياءُ لا تُشترىٰ[14]

فتلك معادلة ليس لنا أمامها إلا التسليم برأي الشاعر ومذهبه، فهل تحل الجوهرة علىٰ ارتفاع قيمتها محل عينيك؟ بالطبع لا، فلا تقبل الدية في أخيك.

ثم ينتقل بنا إلىٰ طريق آخر، فقد لا يقنع أحدنا بكلامه؛ لذا يلمس وتر العاطفة، ويحرك المشاعر:

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك

حسُّكما فجأة بالرجولة

هذا الحياء الذي يكبت الشوق حين تعانقه

الصمت مبتسمين لتأنيب أمكما

وكأنكما

ما تزالان طفلين[15]

فهل تنسىٰ تلك الذكريات الجميلة؟ هل تنسىٰ صحبة أخيك؟ أعلم أنك لا تنساها؛ فخُذ بثأري، ولا تصالح علىٰ دمي.

---

(14) أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 324.

(15) أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 325.

ويستمر في اللعب علىٰ وتر المشاعر، لكنه يستخدم موقفًا آخر، ذلك المنظر القاسي حينما قُتل:

هل يصير دمي بين عينيك ماء؟

أتنسىٰ ردائي الملطَّخ بالدماء

تلبس فوق دمائي ثيابًا مطرَّزة بالقصب؟

فتلك وقفة سريعة أمام بعض أبيات القصيدة الرائعة التي استلهم فيها شاعرنا التراث العربي، ووظف حرب البسوس فيها خيرَ توظيف، وأثق أنني إذا وقفت أمام أجزاء القصيدة كلها فستطول وقفتي؛ لِما اشتملت عليه من روعة البلاغة، ولطف الإشارة، فقد تحقق لها أمران ضمِنا لها الجمال والروعة الخالدة؛ وهما اعتمادها علىٰ حادثة ذات قيمة كبيرة في تراثنا العربي، وتناولها من قِبل شاعر عبقري، فرحِم الله أمل دنقل.

ثالثًا: سيرة "الزير سالم":

تُعد سيرة الزير سالم ملحمةً من أشهر الملاحم العربية علىٰ مر العصور، وقد استقت تلك الملحمة أحداثها وشخصياتها من حرب البسوس؛ فقد قدمت الملحمة "الزير سالم" أو المُهلهِل أخا كليب في صورة فارس أسطوري، فقد كان فارسًا شجاعًا، وشاعرًا مُجيدًا للشعر، ورغم لهوه وعشقه للخمر والنساء، فلم يتوانَ في الثأر لأخيه كليب، وقد برزت خلال سيرة الزير سالم الشعبية قضية الصراع علىٰ القيادة والزعامة بين القبائل العربية، كما تحمل بين طيَّاتها الإشارة إلىٰ تدبير المكائد للعرب من أعدائهم.

وقد كانت سيرة الزير سالم مصدرَ إلهام لكثير من الكتَّاب والأدباء الذين تناولوها مع اختلاف طرق التناول؛ ومن أشهر المؤلفات التي تناولت سيرة "الزير سالم": كتاب "الزير سالم فارس العرب الأسطورة والتاريخ" لأحمد فوزي حميد الشاهيني، وكتاب "الزير سالم أبو ليلىٰ المُهلهِل" لشوقي عبدالحكيم، وكتاب: "الزير سالم البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي" لممدوح عدوان، كما طُبع شعر المُهلهِل تحت عنوان: "ديوان الزير سالم أبو ليلىٰ المُهلهِل" بالمطبعة العلمية، يوسف صادر ببيروت عام 1984.

وسيرة الزير سالم تمتعت بقَبول واسع لدىٰ المجتمع العربي، وظلَّت لقرون عديدة تُروىٰ من جيل لآخر؛ إذ يرىٰ فيها الناس صورةَ البطل العربي الذي يتخيلونه، ويحبون سماع بطولاته، فكانت تُلهب حماستهم، كما يجدون فيها المتعة والتسلية، غير أن تلك السيرة علىٰ شهرتها وذيوعها قد انطوت علىٰ مآخذٍ؛ أود الإشارة إليها في هذا الصدد:

أولًا: انطوت سيرة الزير سالم علىٰ كثير من المبالغات، بل كانت في بعض أحداثها أقرب إلىٰ الخرافات التي لا يمكن تصديقها؛ فقد أشار أحمد فوزي الشاهيني في مقدمة مؤلفه الذي أشرت إليه إلىٰ تلك المبالغات، فذكر أن الزير سالم شخصية أسطورية حيَّرت الأنام، وكثرت فيها المغالطات، حتىٰ صارت وكأنها شخصية من نسج الخيال.

كما أشار إلىٰ ذلك أيضًا ممدوح عدوان؛ إذ يقول: "وأنا أرىٰ أنه من العيب أن نكتب عن تاريخنا أو سِيَرِنا الشعبية دون السعي لنبش المعلومات المبعثرة في الكتب؛ لتحقيق أكبر قدر من المصداقية، حتىٰ لو كانت النتيجة غير مُرضية لكثيرين"[16].

ثانيًا: اختلاف أماكن الحروب والصراعات في بعض الأعمال عن بعضها الآخر؛ ففي بعض الأعمال تركزت الصراعات في نجدٍ وما حولها من بلاد الجزيرة العربية، وفي بعضها الآخر دارت الأحداث في منطقة بئر سبع بفلسطين، وامتدت إلىٰ مختلف بلاد الشام؛ حتىٰ نشعر أننا أمام بطلَين مختلفين تمامًا، أحدهما من شبه الجزيرة العربية، والآخر من فلسطين؛ وفي ذلك يقول شوقي عبدالحكيم: "فحتىٰ أيامِنا لم يخبرنا باحث أو دارس، أو مهتم عربي إلىٰ أننا بإزاء سيرتَين شبه مختلفتين للزير سالم أبي ليلىٰ المُهلهِل؛ إحداهما متناثرة فصحىٰ أو عربية كلاسيكية، والأخرىٰ شعبية فولكلورية لطبعات متعددة متواترة، ربما منذ دخول المطبعة بلادنا مع جحافل الاستعمار الفرنسي، يجري تداولها ولا تعارض بينها - أي الطبعات الشعبية - وبين المأثورات الشفاهية الفولكلورية المبدَّدة علىٰ طول الكِيانات العربية مشرقًا ومغربًا"[17].

---

(16) الزير سالم، البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي، ممدوح عدوان، قدمس للنشر والتوزيع، 2002، ص 13.

(17) الزير سالم أبو ليلىٰ المهلهل، شوقي عبدالحكيم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، الطبعة الثانية 2017، ص 12.

الخاتمة:

من خلال تلك الدراسة القصيرة يتبين لنا أن حرب البسوس قد حظِيَت باهتمام كبير من قبل الأدباء سواء علىٰ مستوىٰ الأدب الرسمي الفصيح أو الأدب الشعبي، وقد كان لهذا الاهتمام أسبابه المنطقية، ولعل أولها سمة فطرية في الشخصية العربية بصفة عامة وهي الميل إلىٰ قراءة وسماع قصص البطولات والمعارك، وهي السمة نفسها التي جعلت للقصة ذيوعًا وانتشارًا في أدبنا العربي، بالإضافة إلىٰ وفرة المصادر في المكتبة العربية التي تردد فيها ذكر الحرب.

كما أن حرب البسوس قد أُنشد فيها العديد من الأشعار؛ مما ساعد علىٰ تخليد ذكراها نتيجة الاحتفاء بهذا الشعر وروده في العديد من المصادر.

وثمة عامل آخر ساهم بنصيب كبير في الاهتمام بتلك الحرب، وتسليط الضوء عليها، ويتمثل هذا العامل فيما انطوت عليه أحداث الحرب ووقائعها من رسم صورة لعادات العرب وتقاليدهم، وما اتسموا به من سمات تُعَدُّ موطنًا للفخر؛ كرفض الذل والهوان، والدفاع عن الحق، والانتصار للقبيلة، وحماية الجار، والنزعة نحو السيادة.

غير أنني بعد تلك الدراسة لا أرىٰ أن تسمية الحرب بحرب البسوس نسبةً إلىٰ ناقة البسوس ملائمًا، فلم يكن مقتل الناقة مبررًا لقيام حرب تستمر أربعين سنة بين قبيلتين كبيرتين كتغلب وبكر، بينهم صِلات قرابة ومصاهرة؛ فالأمر أعمق من تلك النظرة السطحية – في نظري – إذ كان لكليبٍ تاريخٌ في التعالي عليهم، ولم يكن لأحد من بكر أو تغلب أن يُجير رجلًا ولا بعيرًا أو يحمي حمًىٰ إلا بأمره، فربما ضاق سادة بكر وشبابها

بأفعاله، ولكون الشباب أكثر حماسة واندفاعًا، قتله أحدهم، وربما لصراع خفيٍّ علىٰ الزعامة، فلمَ تكون الزعامة لتغلب دون بكر؟

المصادر

1- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني المتوفىٰ 356ه، شرح عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

2-أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة، مكتبة مدبولي القاهرة، تقديم دكتور عبدالعزيز المقالح، الطبعة الثالثة، 1407ه - 1987م.

3- أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولىٰ بك، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأول (د. ت).

4- بلوغ الأرَب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود الألوسي البغدادي، شرحه: محمد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الثانية 1343ه - 1924م.

5- الزير سالم، البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي، ممدوح عدوان، قدمس للنشر والتوزيع، 2002م.

6- الزير سالم أبو ليلىٰ المهلهل، شوقي عبدالحكيم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، طبعة الثانية، 2017م.

7- مسرحية حرب البسوس، علي أحمد باكثير، دار مصر للطباعة، الطبعة الأولىٰ، 1990م.

8- معجم البلدان، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرُّومي البغدادي، المتوفى 626ه، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

9-اليهود في مسرحيات علىٰ أحمد باكثير، بحث للمؤلف: عبدالحكيم الزبيدي، نُشر إلكترونيًّا في نوفمبر 2004 م.

المحتويات

مقدمة 4

حرب البسوس ... لمحة تاريخية: 5

اهتمام الأدباء بحرب البسوس: 14

أولًا: مسرحية حرب البسوس: علي أحمد باكثير (1910 – 1969): 15

ثانيًا: قصيدة لا تصالح: أمل دُنقل (1940 – 1983م): 18

الخاتمة:.....24

المصادر.....25

المحتويات 27